المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

تجلّيات الوسطيّة في معلّقة امرئ القيس
(قراءة نقديّة أدبيّة)

Manifestations of Moderation in the Commentary of Imru' al-Qais (Literary Critical Reading)

بقلم الدكتور

فتح الرحمن محمّد أحمد الجعلي

أستاذ الأدب والنّقد المشارك في قسم اللّغة العربيّة وآدابها
بكليّة اللّغات والعلوم الإنسانيّة بجامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار يونيه ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

تجلّيات الوسطيّة في معلّقة امرئ القيس (قراءة نقديّة أدبيّة)

فتح الرحمن محمّد أحمد الجعلي
قسم اللّغة العربيّة وآدابها ـ بكليّة اللّغات والعلوم الإنسانيّة بجامعة القصيم ـ المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : Fathelrahman@yahoo.com

الملخص

تناول البحث معلّقة امرئ القيس، بهدف الوصول إلى تجلّيات الوسطيّة فيها؛ بوصفها ملمحاً مهماً لم تتعرض إليه الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة – حسب علم الباحث – مما يعدّ من أسباب أهميّة هذا البحث.

يتناول البحث من خلال منهج تاريخيّ بيئة الشّاعر وحياته، مصطحباً الأثر النّفسي لتلك البيئة عليه، وذلك عن طريق الوصف والتّحليل.

وجد الباحث أنّ للوسطيّة ملامح في الشّعر العربيّ، تجلّت في معلّقة امرئ القيس بكثرة من خلال بعض الأشكال التّعبيريّة، فاتخذ لها مصطلحات ذات معان واضحة، وهي: (البينيّة، والثّنائيّة، والشِّرْكة، والطريق الثّالث، والاتزان)، ثمّ شرح تلك المصطلحات، وربطها بمفهوم الوسطيّة التي تعدّ منهجاً فكريّاً وسلوكيّاً عرفته البشريّة منذ عصر (أرسطو) الذي كانت له فيها آراء.

ومن خلال ما وقف عليه من شواهد استنتج الباحث أنّ للوسطيّة جذوراً في الأدب العربيّ – قبل الإسلام – ما يمكن أن يعدُّ أساساً للفكر الوسطيّ العربيّ، وقد دعم الإسلام هذا الأساس، كما لاحظ أنّ لامرئ القيس نصيباً من هذا الاتجاه في التّفكير العربيّ تجلّى من خلال معلّقته؛ بسبب تعدّد البيئات التي عاش فيها، وما أثّرت به على تكوينه النّفسيّ.

أوصى الباحث بتقديم دراسات أخرى في الشّعر العربيّ تنظر في جذور بعض الظّواهر الاجتماعيّة ذات الصّلة بموضوع الوسطيّة مثل: التّطرف في معلّقة عمرو بن كلثوم.

الكلمات المفتاحية: الوسطيّة، الثّنائيّة، الشِّرْكة، الطريق الثّالث، الاتزان.

Manifestations of Moderation in the Commentary of Imru' al-Qais (Literary Critical Reading)

Fath al-Rahman Muhammad Ahmad al-Jaali
Department of Arabic Language and Literature - College of Languages and Human Sciences, Qassim University - Kingdom of Saudi Arabia
Email: Fathelrahman@yahoo.com

Abstract

The study deals with the manifestations of moderation in Imru' al-Qais's commentary. It considers causes in the poet's life, intending to reach moderation in his poetry because it is an important feature that literary and critical studies have not addressed which is drawing the attention to the importance of this research. Using historical approach, the study analyzes and describes his environment and life, highlights the psychological impact of the environment on him. It finds that moderation has features in Arabic poetry, which were abundantly evident in Imru' al-Qais's commentary through some expressive forms. He took terms for it with clear meanings, namely: betweenness, duality, partnership, the third way, and balance. Then he explained those terms and linked them to the concept of moderation which is an intellectual and behavioral approach known since the era of Aristotle, who had a vision on it. It also finds that moderation has roots in Arabic literature - before Islam - which can be considered a basis for Arab moderation thought, and Islam has supported this basis. Notable that Imru' al-Qais had his contribution to this trend in Arab thought, which was evident through his poems' commentators, which could be attributed to the multiple environments in which he lived, and how they affected his psychological formation .

It recommends conducting some studies in Arabic poetry that explain the roots of some social phenomena related to moderation, such as extremism in the commentary of Amr ibn Kulthum.

Keywords: centrism, dualism, communion, third way, balance.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة:

تنطلق البشريّة في تصوّراتها للحياة من منطلقات مختلفة تمثّل الأطر التي تحدّد مساراتها، والسّمات التي تميّز هويتها، وقد شاعت في عصرنا هذا ثقافة الوسطيّة بوصفها رمزاً للاتزان الفكري ّوالسّلوكيّ، ما جعل كثيرين يعالجونها من مباحث علوم مختلفة، كان للدراسات الإسلاميّة فيها نصيب كبير.

ولأنّ للأدب دوراً كبيراً في حياة الشّعوب، لا سيما أهل اللسان العربيّ، نظر الباحث في هذه القضية علّه يجد لها جذوراً أدبيّة تضاف للمباحث العلميّة الأخرى، فجاءت هذه الدّراسة هادفةً إلى النّظر في تجلّيات الوسطيّة في الشّعر العربيّ القديم من خلال نموذج معلّقة امرئ القيس؛ بحسبان أنّ الظّواهر الاجتماعيّة نتاج ثقافة تراكميّة تؤدّي إلى تكوين فكريّ وسلوكيّ ينعكس في حياتنا خيراً أو شراً، والشّعر عند العرب من أقوى تلك الرّوافد؛ ولذا فمن المتوقّع أن يحمل أسساً للوسطيّة التي تُعدّ منهجاً إنسانيّاً يستحق المعالجات التي تفيد المعرفة الواصلة بين علوم مختلفة، المؤصّلة للثقافة العربيّة، كما تهدف – كذلك– إلى الوقوف على ملامح غير مطروقة في شعر عصر ما قبل الإسلام ،لا سيما شعر امرئ القيس الذي يعدّ في الطّبقة الأولى من الشّعراء(١).

لقد اتّسع البحث حول مفهوم الوسطيّة بعد بروزها مصطلحاً اجتماعياً، فاجتهد الباحثون في إيجاد تعريف جامع مانع لها، مهتدين بمعاني الكلمات ذات الصّلة بها من دائرة كلمة (وسط) وما حولها، فتتبع الباحث هذا المفهوم في معلّقة امرئ القيس من خلال شواهد تندرج تحته.

إنّ أهمّية هذا الموضوع تأتي من كونه يعالج الظّاهرة من خلال الشّعر، خلاف ما درج عليه كثيرون بحثوا فيها من خلال النّصوص الدينيّة، أو بعض

(١) ابن قتيبة الدينوري، الشّعر والشّعراء، ج١، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ص ١٠٧.

العلوم الإنسانيّة الأخرى، يضاف إلى ذلك الغرابة النسبيّة في وجود الظّاهرة في المجتمع العربيّ قبل الإسلام الذي يميل الرأي النّقدي الغالب إلى تصويره مجتمعاً تغلب فيه ظاهرة التّطرف؛ الأمر الذي يظهر سبباً واضحاً في النّزاعات والحروب، كما أنّ في الموضوع جدة في التّناول لمعلّقة امرئ القيس، فقد درست في جوانب عديدة ليس من بينها – حسب ما وقف عليه الباحث – هذا الموضوع.

ظهرت للباحث تساؤلات يمكن إجمالها في الآتي:

-كيف تجلّت الوسطيّة في ثقافة المجتمع العربيّ القديم من خلال الشّعر؟

– ما المؤثّرات التي أدّت إلى ظهور الوسطيّة في شعر امرئ القيس؟

– ما ملامح الوسطيّة في معلّقة امرئ القيس؟

ولمعرفة إجابات لهذه التّساؤلات، افترض الباحث أنّ الظّاهرة موجودة في الشّعر العربيّ القديم، وأنّها ظهرت بكثرة في معلّقة امرئ القيس نتاجاً لبيئات اجتماعيّة مختلفة عاش فيها الشّاعر؛ ولذا اختار الباحث المنهج الاجتماعيّ للنّظر في الظّاهرة من خلال بيئات الشّاعر، ثم استعان بالمنهج النّفسيّ؛ لينظر من خلاله إلى الأبعاد النفسيّة التي أسهمت في اتخاذ المواقف، أو صناعة الصّور عند الشّاعر؛ لأنّ الأبعاد النّفسيّة نتاج طبعيّ للأثر الاجتماعيّ البيئيّ؛ فالنّفس تتأثر ببيئاتها.

وللوصول لأهداف البحث قُسّم إلى مقدّمة، وتمهيد، ومبحثين كالآتي:

تمهيد: تتبع فيه الباحث ملامح الوسطيّة في الشّعر العربيّ القديم، وأشار إلى أهميّة دراسة تجلّياتها في الأدب من باب الإسهام البينيّ في تأصيل المعرفة.

المبحث الأوّل: مظاهر الوسطيّة في حياة امرئ القيس، وفيه تتبع الباحث بعض ما ظهر في حياة امرئ القيس مما يُعدّ من الوسطيّة.

المبحث الثّاني: تجلّيات الوسطيّة في معلّقة امرئ القيس، وفيه ناقش الباحث ما يمكن أن يُعدّ من الوسطيّة في شعر امرئ القيس من خلال الوصف، والمكان، والمشّاعر، وغيرها.

وقد نظر الباحث في الدّراسات السّابقة فلم يجد دراسة عالجت هذا الموضوع؛ فقد انصبّت معظم الدّراسات في معالجة الوسطيّة بوصفها منهجاً فكريّاً إسلاميّاً، ولم تتطرّق لها من الجانب الأدبيّ، عدا ما وجد الباحث بعنوان: الوسطيّة في الفكر النّقدي العربيّ القديم، وأثره في قبول التّجديد، للباحثتين: د. ليلى شعبان رضوان، ود. سهام سالمة، تلك الدّراسة المنشورة في مجلة بحوث الآداب التّابعة لجامعة المنوفيّة، (ج١٣٣- ٢٠١٨م)، وهي تلتقي مع هذه الدّراسة في كونها عالجت موضوع الوسطيّة في حقل الأدب والنّقد، ولكنّها تختلف معها في بقية الجوانب.

كما أنّ هنالك دراسات كثيرة عالجت شعر امرئ القيس في جوانب كثيرة ليست ممّا له صلة مباشرة بهذا البحث، وهي من البدهيّ المتوقّع؛ ولذا لا يرى الباحث أهمية ما يدعو لتعدادها؛ فهي ليست ممّا يفيد البحث (الوسطيّة في شعر امرئ القيس) إلّا بمقدار ما تفيد بعض المراجع في معلومات اقتضت طبيعة البحث إيرادها.

التّمهيد: ملامح الوسطيّة في الشّعر العربيّ القديم.

جاءت كلمة (وسطيّة) من النّسبة إلى كلمة (وسط) ذات المعاني المتعدّدة المتقاربة في لغة العرب، فوسط الشّيء يعني: أعدله، وكذلك يعني: ما بين الجيّد والرّديء، وربّما عبّرت الكلمة عن ما بين طرفي الشّيء(١).

ومن هذه المعاني وغيرها ممّا يقاربها، جاء مفهوم الوسطيّة، بوصفها قضية فكريّة اتخذت لها بعداً اجتماعيّاً، فهي من القضايا التي تطرّق إليها الفكر الإنسانيّ منذ عصور الفلاسفة القدامى، حيث تعرّض بعضهم لموضوعات تضمنتها، وتحدّث بعضهم عنها بصورة مباشرة مثل (أرسطو) الذي عدّ الوسطيّة قرينة الفضيلة؛ إذ تعني الفضيلة عنده الالتزام بالوسطيّة، وتجنب الإفراط بالزيادة أو النقصان (٢)، ولذلك ولد توصيفها قديماً ، ووضح تصوّرها، فأصبحت قالباً فكريّاً يقيس النّاس عليه الأشياء فيقاربونها منه، ما أتاح مجالاً واسعاً للنّظر إلى ملامحها في الأدب العربيّ لا سيما الشّعر ديوانهم الذي صوّر حياتهم بمواقفها المختلفة، وأظهر بعض السّلوكيّات الاجتماعيّة فيها، فقد " أحاط الشّاعر الجاهليّ في أوصافه بجميع ظواهر البيئة التي كان يعيش فيها، فوصف الطّبيعة الحيّة والصّامتة والسّاكنة والمتحركة، فصوّر الصّحراء وما فيها من جماد وحيوان، وما يعتريها من رياح وسحب وأمطار، وظواهر المناخ المختلفة، وغير ذلك بحيث يمكن القول معه بأنّ الشّاعر الجاهلي قد صوّر البيئة العربيّة تصويراً عامّاً استوعب فيه جميع ظواهر الحياة في ذلك العصر"(٣).

---

(١) الجوهري الفارابيّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّ، ج٣، ط٤، ت: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت،١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م، ص ١٦٧.

(٢) وليم دول، المنهج في عصر الحداثة، ترجمة خالد عبد الرحمن العوض، ط١، مكتبة العبيكان، الرّياض، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م، ص ١٦٩.

(٣) علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ط١، دار التّراث الأوّل،١٤١٢هـ ،١٩٩١م، ص٤٥.

فالشّعر مثّل عندهم مرجعية علميّة لجوانب كثيرة في حياتهم، حتى لنجد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول:" كان الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه ..."(١).

إنّ القارئ الفاحص لشعر العرب قديماً، ربما تتكون عنده صورة ذهنية للعربيّ تظهره نموذجاً (جاهلياً) يجسّد الصّورة التي صبغ بها عصره فتظهر عنده صورة السّفه، واتّخاذ المواقف المتشدّدة وإشعال الحروب لأتفه الأسباب، وهذه الصّور تمثّل ملمحاً موجوداً عندهم ربمّا غلب عليهم فمثّلهم على سبيل التغليب، لكنّه ليس ما عندهم كلّه، حيث كان بينهم الحكيم، والكريم، والصّبور، والمعتدل الفكر والمزاج؛ ولذلك فلابد أن تصطحب النّظرة العادلة إليهم البعد المتزن؛ إنصافاً لهم، وإظهاراً لما عندهم من جوانب تغيب – أحياناً – عن كثيرين.

ومما يلحظ في أشعارهم ملامح تعدّ من التّطرف وأخرى تعدّ من الوسطيّة، فنجد ملامح التّطرف في مواقف كثيرة تكون دوافعها مختلفة، إذ كان بعضهم يعتقد أنّ التّطرف في المواقف هو الأنسب للتعبير القويّ عنها، كعمرو بن كلثوم الذي حشد في معلقته صوراً كثيرة لمواقف متطرّفة مثل قوله:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا(٢)

وهذه صورة تفقد الاتزان، وتجنح إلى التّطرف؛ إذ كان يكفيه أن يرد الجهل بمثله، أو بحكمة، لكنّه لم يجد ما يشفي صدره إلّا الزّيادة في الجهل، والانتصار في ميدانه، رغم أنّه ليس ممّا يحمد.

ومثل ما نجده في قول السّموءل بن عادياء، حيث يقول:

وأسْيَافُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ بهَا مِنْ قِراعِ الدّارعينَ فُلولُ

---

(١) الرّازي، المحصول، ج١، ط٣، ت: طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧ م، ص ٢١٣.

(٢) الزّوْزَني، شرح المعلقات السّبع، ط١، دار إحياء التّراث العربي،١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٦.

مُعَوَّدةٌ أَلَاّ تُسَلّ نِصَالُهَا فَتُغْمَدَ حَتّى يُسْتَبَاح قَبِيلُ[١]

فهذه الأسياف من عادتها "أَن لَا تجرد من أغمادها فَترد فِيهَا إِلَّا بعد أَن يستباح بهَا قبيل".[٢]

وفي هذا الوصف مبالغة تصل حدّ التّطرف؛ إذ من الممكن أن تعود السّيوف إلى أغمادها من غير استباحة قبيلة أو أقلّ من القبيلة، وتحقق نصراً، ولكنّ هذا ما لا يمثّل الموقف الذي يرضي الشّاعرذ ويرضي قومه.

صحيح، أنّ النّقد الأدبيّ لم يتناول مثل هذا الشّعر بمقاييس الاعتدال والوسطيّة أو التّطرف، وعالجه من خلال مصطلحات أخرى مثل المبالغة، وحشد حوله رؤى وآراء، لكن ذلك لا يحميه من الوقوع في الوصف بالتّطرف.

ومنهم من اعتقد أنّ التّطرف يمثّل قمة ما يناله المرء من مكرمات – رغم أنّه جاء في عصر إسلاميّ– حتى نجده ينصّ على نفي التّوسط عنه مثل أبي فراس القائل:

ونحنُ قومٌ لا توسطَ بيننَا لنا الصّدرُ دونَ العالمينَ أو القبرُ[٣]

ما يعني أنّ التّطرف ظاهرة ثقافيّة لا ترتبط بعصر معين، بقدر ارتباطها بثقافة صاحبها وتصوّراته للأشياء.

ومثلما ظهرت عند العرب روح التّطرف، نجدهم عبّروا من خلال أشعارهم عمّا يشير إلى ذوق وسطيّ، فهذا الأعشّى يفضّل المرأة المتوسّطة في مشيتها، فيقول:

كأنّ مشيتَها منْ بيتِ جارتِها مرُّ السّحابةِ لا ريثٌ ولا عجلُ[٤]

---

(١) الخطيب التّبريزي، شرح ديون الحماسة، ج١، دار القلم، بيروت، (د. ت)، ص ٣١.

(٢) نفسه.

(٣) أبو فراس الحمداني، ديوان أبي فراس، مؤسسة هنداوي، المملكة المتّحدة،٢٠٢٠م، ص٩٣.

(٤) أبو عمرو الشّيباني، شرح المعلّقات التّسع، ط١، ت: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ١٨.

وهذا كعب بن زهير يفضّل الوسط من طول المرأة، فيقول عن (سعاد):

هيفاءُ مقبلةٌ عجزاءُ مدبرةٌ لا يشتكي مِنها قصرٌ ولا طولُ[١]

ولعلّ من المنطقيّ عدُّ مثل هذه الإشارات أساساً للوسطيّة التي تُعدّ من المحمود في الفكر الإنساني، فتحسب هذه الإشارات من إرث الثّقافة العربيّة القديمة، فضلاً عن عما ورد –لاحقاً – من نصوص إسلاميّة واضحة المعاني والدّلالات تدعو لها، أو تمدحها، مثل قوله – تعالى–: " ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾"[٢] ، وقوله – تعالى– :" ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورٗا﴾"[٣]، أو من خلال الأحاديث النبويّة، مثل ما روي عنه– صلّى الله عليه وسلّم –:"عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: كنّا عند النبيّ– صلّى الله عليه وسلّم – فخطّ خطّاً، وخطَّ خطَّين عن يمينه، وخطَّ خطَّين عن يساره، ثمّ وضع يده على الخطّ الأوسط، فقال: هذه سبيل الله، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾."[٤]

ثمّ ما حمله إرثهم الذي أقرّ أنّ خير الأمور أوسطها[٥].

مظاهر الوسطيّة في حياة امرئ القيس

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث[٦]، علم من أعلام الشّعر العربيّ، و أحد فحوله، حملت كتب الأدب العربيّ أخباره، ونقلت أشعاره، فبيّنت فضله على الشّعر

---

(١) أبوزيد بن الخطّاب القرشي، جمرة أشعار العرب، ت: علي محمّد البجادي، نهضة مصر للطباعة النّشر، (د.ت)، ص ١٣٢.

(٢) الآية (١٤٣)، سورة البقرة.

(٣) الآية (٢٩)، سورة الإسراء.

(٤) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج١، ت: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت)، ص٦.

(٥) السّيوطي، الدّر المنثور في التّفسير المأثور، ج٥، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ص ٥٢.

(٦) الخطيب التّبريزي، شرح القصائد العشر، إدارة الطّباعة المنيرية، ١٣٥٢ه، (د.ت)، ص٣.

العربيّ بما سبق إليه، وإبداعه بما قال، كما عرضت حياته، فأوضحت فيها المـــاتع في مقام تلقي الأدب، والشّاهد في مقام درسه، حتى أصبح التّعريف به حديثاً عـــن معلوم، وتكراراً لمفهوم، وقد نسب ابن رشيق القيرواني إلى العلماء بالشّعر تقديمه على الشّعراء، معللاً ذلك بكونه "سبق إلى أشياء فاستحسنها الشّعراء واتبعوه فيهـــا؛ لأنّه قيل أوّل من لطّف المعاني، واستوقف على الطّلول، ووصف النّساء بالظّبـــاء والمها والبيض، وشبّه الخيل بالعقبان والعصي، وفرق بين النّسيب وما سواه مـــن القصيد، وقرّب مأخذ الكلام؛ فقيد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتّشـــبيه"(١)، ولكثـــرة أخباره، واشتهارها، يميل الباحث إلى قراءة حياته من خلال الوقـــوف علـــى مـــا يحسب من الأسس التي أسهمت في تكوين فكرة الوسطيّة عنده.

إنّ أوّل ما يقابلنا في حياة امرئ القيس ممّا ينصب في هذا الاتّجاه نشأته وما تبعها من تغييرات شكّلت مسيرة حياته الأولى، فهو سليل بيت الملك في قبيلته، لكنّه لم يعش حياة أبناء العظماء مثله، فقد أرغمه أبوه على العمل بالرّعي تأديباً له، لأنّه اختار الشّعر الذي لا يليق بمقام العظماء مثله آنذاك، وحينما لم يســـتجب لوســـيلة التّأديب طرده – وذلك في وقت مبكر من حياته– الأمر الذي أسلمه إلى بيئة أخرى تختلف عن بيئته الأولى حيث التحق بشذّاذ من طي وكلب وبكر بن وائل وعـــاش معهم حياة مختلفة عن حياته الأولى(٢).

ويمكننا توقّع التّنازع النّفسي الذي يعيشه من عاش حياتي هاتين البيئتـــين : حياة علية القوم، وحياة أسافلهم المتمثّلة في مجتمع الشّذّاذ المنبوذين اجتماعياً، وما يمكن أن يفضي إليه هذا التّنازع بين البيئتين من تكوين جديد، وهذا مـــا يـــرجّح الباحث أنّه حدث في شأن امرئ القيس؛ فحمله إلى اختيار حياة ماتعة تقرّبـــه مـــن بيئته الأولى، مع احتفاظه بحياة محاطة بالمغامرات، توفر له ما أعجبه في البيئـــة

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ج١، ط١، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ١٤٢٢هـــ،٢٠٠١م، ص٨٤.

(٢) الزّوزني، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص ١٨.

الثّانية، فعاش مستمتعاً بالطبيعة وجمالها، ووفّر لنفسه جوّاً من المتعة واللذّة، واستطاع التعبير عن قيادته وسيادته من خلال إكرام النّاس وإغداق أسباب اللّذات عليهم(١)، وهذا الاختيار يشير إلى اختيارات وسطيّة، يمكن أن تلقي بظلال في شعره، وتبيّن مزاجه.

ومن المواقف التي تبيّن روح الوسطيّة عنده، ما حملته قصة تلقيه نبأ وفاة والده، فحينما تلقّى ذلك النبأ المفجع قال:" ضيّعني صغيراً، وحَمّلني دمه كبيراً، لا صحو اليوم، ولا شرب غداً، اليوم خمر وغداً أمر"(٢).

ففي هذه المقولة يقارب بصورة ثنائيّة، إذ يظهر الصغر والكبر، ثمّ يشدّنا نحو مفارقة اليوم والغد بين الخمر والأمر، ثمّ يختار موقفاً وسطاً لا يترك فيه خمره، ولا يضيع فيه أمره، ويؤكّده بالنّفي القاطع لا الإثبات المتراخي:" لا صحو اليوم، ولا شرب غداً"، وهذا الاختيار مؤشّر لطريقة تفكير وسطيّة في ظلّ أزمة تحتاج لإدارة، وثبات يفضي إلى الخيار الذي يناسب وفائه لندمائه، وحرصه على حياته الماجنة، مع استحضاره واجبه الاجتماعيّ الملزم له بثأر أبيه.

وفي أخبار امرئ القيس ملمح مهم يظهر للدّارس لحياته ينبئ عن شخصية فيها مرونة، وتتعامل مع الحوار وسيلة للتواصل، فقد حملت الأنباء عنه حوارات مع أكثر من شاعر حيث كان في بعضها سائلاً مثل قصته مع الحارث بن التوأم اليشكري، إذ قابل اليشكري سائلاً له عن معرفته بالشّعر، وجعل يختبره، فلما عرف قدره أقرّ بشاعريته، وقال له: " لا أتعنّت أحدًا بعدك بالشّعر"(٣)، ما يشير إلى شخصيّة تقرّ بالفضل إلى أهله، وتقبل رفع غيرها عليها، وتترك التعنّت.

---

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م، ص٢٦، ص٢٧.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ت: محمّد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص٢١٧.

(٣) ابن أبي الدّنيا، المطر والرّعد والبرق، ط١، ت: طارق محمد سكلوع العمودي، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧ م، ص ٧٥.

وهذه الشّخصيّة تقرّبنا – أيضاً – من تكوين نفسي ّمرن يتوقّع قبوله المواقف الوسطى.

وفي مواقف أخرى، نجده مسؤولا ًكما في قصته مع عبيد بن الأبرص الذي لقيه فسأله عن معرفته بالأوابد، وجعل يعرض عليه أسئلته شعراً فيردّ عليه امـــرؤ القيس شعراً.

وفي هذه القصّة تستوقفنا إشارة يتوارى خلفها ما يفيد أنّ الشّاعر كان يـــؤمن بعدالة الميزان، وهو ما ينسحب – أيضا – على طريقة تفكيره، ويقرّبنا من فرضيّة وسطيّته ببعد دينيّ، فحينما قال له عبيد بن الأبرص:

مَا الحاكمُونَ بلا سَمْعٍ وَلا بَصَرٍ ولا لِسَانٍ فَصِيحٍ يُعْجِبُ النّاسَا [١]

ردّ امرؤ القيس:

تلكَ الموَازِينُ وَالرّحْمَانُ أنْزَلَهَا رَبُّ البَرِيّةِ بَينَ النّاسِ مِقيَاسَا[٢]

وكان في ثالثة مناظراً، كما في قصّته مع علقمة الفحل التي احتكما فيها إلى زوجة امرئ القيس (أم جندب) فحكمت بتفوّق علقمة على زوجها، فطلّقهـــا امـــرؤ القيس بعد ذلك، الأمر الذي ربّما يفهم منه أنّ الطلاق بسبب عـــدم قبـــول امـــرئ القيس الحكم، ولكنّ الصحيح أنة طلقها لشكّه في حبها لعلقمة، صرّح به في قولـــه:" ما هو بأشعر مني ولكنّك له عاشقة" [٣]، وما تبع ذلك في القصّة مما رواه ابن قتيبة في قوله:" فطلقها فخلف عليها علقمة"[٤]

وفي هذه القصّة يظهر ملمح مهم من ملامح الوسطيّة عند امرئ القيس، فمبدأ قبوله الاحتكام إلى زوجته في قضية شعريّة، يعد من المرونة والاعتدال في طريقة

---

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق ، ص ١١٤.

(٢) نفسه.

(٣) ابن قتيبة، المعاني الكبير في أبيات المعاني، ج١، ط١، ت: سالم الكرنوكي، وعبد الرحمن بن يحي، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد الدّكن، ١٣٦٨هـــ، ١٩٤٩م، ص٨٢.

(٤) نفسه.

تفكيره، ويظهر تقديره للمعرفة النّقدية لهذه المرأة، ما يضاف إلى ملامح الوسطيّة في شخصيّته.

وهذه الملامح لا تعني أنّه كان وسطيّاً في كلّ شيء ففي أنبائه ما يفيد غير ذلك، وفي أشعاره كذلك، غير أنّ البحث معنيّ بتتبع مظاهر الوسطيّة في حياته، تمهيداً لرؤية تجلّياتها في معلّقته.

تجلّيات الوسطيّة في معلقة امرئ القيس

النّاظر لتعريفات الوسطيّة يلاحظ أنّ معرفي المصطلح يسعون لجمع معان مختلفة لتكوين مفهوم له يسع معاني كثيرة ، ويغوصون في المعاجم والتّفاسير للوصول إلى ما يرمون إليه؛ ولذلك عرّفوا الوسطيّة من خلال مفردات عديدة، وقرّبوها لأكثر من معنى، مثل :" الاعتدال والعدل، والتّوسّط بين طرفي الإفراط والتّفريط"(١)، كما تشمل: " السّماحة والسّهولة المحمودة فيما يظنّ النّاس التّشديد فيه"(٢).

ولعلّ في ذلك ما ينصب في مصلحة المصطلح، إذ يجد الباحث فيه سعة تقربه من كثير من الأفكار والأحداث والصّور، إذ المعاني التقريبيّة مرنة، والتّقريب إلى المعاني سهل؛ ولذا يمكن قراءة تجلّيات الوسطيّة في معلّقة امرئ من خلال الآتي:

البينيّة: جاء هذا المصطلح من كلمة (بين) التي تعني توسّط طرفي الشّيء(٣)، ويشير إلى أكثر من ذلك ، فهو : "يدلّ على وقوع شيء بين شيئين أو أشياء، وقد يكون ذلك حسّاً أو معنى" (٤)، وبهذا المفهوم أخذت البينيّة بعدها في أدبيات الوسطيّة، وربطه الباحثون بها معللين ذلك بكون كلمة (بينيّة):" تعطي

(١) محمّد حمد كنان ميغا، التّأصيل الشّرعي لمفهوم الوسطيّة في الإسلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ت)، ص ١٣، ص١٤.

(٢) نفسه.

(٣) الجوهري الفارابيّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّ، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٤) ناصر العمر، الوسطيّة في ضوء القرآن الكريم، مدار الوطن، (د. ت)، ص٨٧.

مدلولاً عملياً على أنّ هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبُعد عن الغلوّ والتّطرف أو الإفراط والتّفريط "[١]، وهذا ما يراه النّاظر في معلقة امرئ القيس؛ ففيها أبعاد (البينيّة) واضحة، تتجلّى في اختياراته المتكرّرة لموقع بين موقعين أو أكثر، أو موقف بين موقفين، يظهر ذلك في وصفه للأماكن والأحداث، مثل ما افتتح به معلّقته، حيث يقول:

قِفا نبكِ منْ ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللّوى بينَ الدّخولِ فَحَوْمَلِ [٢]

فهذا الموضع – عنده – يقع بين هذه المواقع، ويرى صورته من خلال هذه (البينيّة)، فلم يصل إلى وصفه من خلال موقعه عبر الاتجاهات التي تحدّه شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً، وإنّما بموقعه (بين) الدّخول فحومل، وفي ذلك ما يشير إلى التقاطه صورة المكان بعين ترى الوسط، وتعدّه معبّراً دقيقاً في الوصف.

وكذا ما يرى في قوله:

قعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتي بين ضَارجٍ وبين العذيبِ بعدَ ما مُتأملِ[٣]

فقد عرّف الموقع الموصوف بكونه بين (ضارج) و (العذيب)، ما يوضّح رسوخ تصوّر (بين) عنده، مؤشّراً إلى اختيار الوسط.

ومثل ذلك نجده حينما يصف فرسه، إذ يقول:

فعادَى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ دراكاً ولم ينضحْ بماءٍ فيغسلِ[٤]

ففرسه تحرك بين الثّور والنّعجة، ولم ير الشّاعر وصفاً آخر يحدّد موقعه سوى ذلك، فهذا الموقع البيني لحركة الفرس، يمثّل الصّورة التي تعني السّرعة، والمهارة، كما تعني ما اختاره الإنسان الذي يمتطيه، فهو الذي قاد الفرس لهذا المسار؛ لظنّه أنّه الأنسب لتحقيق ما يريد.

---

(١) ناصر العمر، الوسطيّة في ضوء القرآن الكريم، ص٨٧.

(٢) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢١.

(٣) المرجع السّابق، ص ٦٤.

(٤) المرجع السّابق، ص٦٢.

وبالنّظر لاختياراته البينيّة للأمكنة، يمكن أن نستشف نَفَس البحث عن الأمان، وهو أمر متوقع في شأن رجل عاش حياة التنقل مع خلعاء القبائل من بعد عيش مستقر، ثمّ عاش حياة الطّرد التي تحمله على التّنقل من مكان إلى آخر، في حركة سريعة قوامها مطاردة الصيد، والإحساس بعدم الاستقرار.

حتى في دخوله بين الثّور والنّعجة يمكن أن نلمس هذه الروح؛ إذ تقارب الثّور والنّعجة يأتي من ذات الباب.

الثّنائيّة: من الملاحظ في معلقة امرئ القيس كونه يصل إلى بعض مراده بقرن شيئين ببعض، كموصوف بموصوف، أو خبر بخبر، وغالباً ما يشرك الثّنائي الذي يختاره في فعل واحد، وهذا ما أسماه الباحث (الثنائية) منطلقاً من المفهوم العام للكلمة الذي يشير – في بعض معانيه – إلى التكوين ذي الشّقين[١].

ومن ذلك قوله:

فتُوضِحَ فالْمِقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْأَلِ[٢]

جاء في شرح هذا البيت أكثر من معنى، منها اختيار الباحث كونه يصف أثر الموضعين (توضح والمقراة) بكونه لم ينمحِ ولم يذهب " لأنّه إذا غطته إحدى الريحين بالتراب كشفت الأخرى التراب عنه"[٣]، فصراع الثّنائيّة المتمثّل في الرّيحين المختلفين أظهر الرّسم موقعاً ثابتاً يتوسّط حركتين مختلفتين، واحدة منهنّ تمحو، والأخرى تعيد.

وحقيقة المحو والكشف يمكن الوصول إليها عبر صور مختلفة، بيد أنّ الشاعر عرض تصوره للحدث من خلال هذه الثّنائيّة التي تمثّله، وهي ثنائيّة تميل لوسطيّة الحدث فهو لم يمح مطلقاً، ولم يبق صامداً أمام حركة الرياح، فقد فعلت كلّ ريح فعلها فيه في انسجام يجعلهما تقتسمان الناتج بين المحو والعودة.

---

(١) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ص٣٩٧.

(٢) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٢.

(٣) نفسه.

هذه الصورة ربما تكون نتاج أحداث مختزنة في دواخله، تجسدت لناظريه من خلال ما انتاب المحل من تغيير، فحياة الشّاعر حياة مليئة بالمتغيرات التي يمحو بعضها بعضاً، ويكشف بعضها الآخر، وبيئاته المتعدّدة أسهمت في تغييرات كثيرة في حياته.

وكذلك نجد الثّنائيّة المصوّرة للموقف في يوم الغدير، حيث يقول:

فَظَلّ العَذَارَى يَرْتَمِيْنَ بِلَحْمِهَا وشَحْمٍ كَهُدّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتّلِ[1]

فهنا تظهر الصّورة الجامعة بين الشّحم واللّحم، حيث لم تكتمل عنده الصّورة حتى جمع بين الصّورتين، وهو جمع ذو بعد يشير إلى كرمه إذ تجوّد بأطيب لحم، ويشير –أيضا – إلى انتخاب صورة ثنائيّة تجمع الطيب في الاثنين (الشّحم واللّحم) لتجعل منهما صورة وسطى تحمل صفاتهما.

أمّا في صورة وصفه للغبيط يوم كان مع محبوبته، فيقول:

تَقولُ وَقَد مالَ الغَبيطُ بِنا مَعًا عَقَرتَ بَعيرِي يا امرَأَ القَيسِ فَانْزِلِ[2]

فهنا ثنائيّة تجمع المحبوب والمحبوبة وتشركهما في وقوع الفعل عليهما، فالحدث (مال الغبيط) ولكن الذي يصوّر نفسيّة الشّاعر كون الميل كان بهما (معاً)؛ إذ في هذا الوصف ثنائيّة تعطي إحساساً بوحدة بينهما نجمت عن الحدث، والمشاركة في الحدث توحي بالمشاركة في المشاعر، فميل الغبيط بهما نجمت عنه حالة من التوتر أفضت إلى خوفها على بعيرها، وأدت إلى خوفه من فقدان لحظة متعته، ومحصّلة ما حدث اقتسام حالة تتوسّط الخوف والمتعة جمعت بينهما.

وأما حركة فرسه فتجمع ثنائيّة حركيّة متناقضة ففرسه:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كجُلمودِ صَخرٍ حطّهُ السيلُ مِنْ عَلِ[3]

---

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٧.

(٢) المرجع السّابق، ص٢٩.

(٣) المرجع السّابق، ص٥٤.

لكن هذا التّناقض النّاجم من الأضداد استطاع امرؤ القيس تحويله إلى حركة منسجمة بكلمة (معاً)، وهو اختيار ينبئ عن نفسيته المائلة لهذا الانسجام مثلما أنّه إبداع فنيّ أحسن فيه اختيار الرّابط.

ومن الملاحظ، أنّ تتبع الوصف الثّنائي يوقعه –أحياناً – فيما يخالف الذّوق؛ فالمتوقّع أن يعرض العاشق حبه لمحبوبته بما يجعل المتلقي يحسّ أنّها تحظى به وحدها، فإذا بنا أمام عرض مختلف، فيه العاشق يعرض نفسه خلال تجربته مع عشيقتين غير التي بحدثنا عنها، فيقول:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيْمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ[١]

ولعل الثّنائيّة واضحة في (قامتا) و (منهما).

الشِرْكَة: وقد جاء في معناها " أَن يكون الشّيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال شاركت فلاناً في الشّيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً، إذا جعلته شريكاً لك"[٢]، وهي فعل ينم عن اعتدال واتزان، فليس فيه التّطرف ولا الانفراد، وهذا ما نجده عند امرئ القيس، فهو يشارك الفعل غيره، فمنذ افتتاحيّة معلّقته لا يقف وحده ليبكي المحبوبة وإنّما يدعو رفيقيه –حقيقة أم خيالاً– فيقول:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ [٣]

والبكاء لا يحتاج إلى الشّركة؛ فهو يعبر عن إحساس ينتاب الفرد، ولكنّ الشّاعر مال إلى هذه المشاركة، وفي ذلك إشارة إلى ميله إلى عدم الانفراد أو التّطرف في الأشياء، وميله نحو الجماعة والاشتراك معها في الأحداث، وهو ميل تحكم به عليه حياة النّدامى ورفاق المتعة واللّذة، فضلاً عن حياة الخطر التي عاشها في حركته بحثاً عن الصّيد، أو بحثاً عن الثأر لاحقاً.

---

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٥.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، ج٣، ت: عبد السّلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ٢٦٥.

(٣) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢١.

كما نجده يشارك محبوبته فيما ترمي إليه من فعل حينما خرجا في الليلة الموصوفة في معلّقته، فيقول:

خَرَجْتُ بها أمشي تَجُرّ وراءَنا على أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ (١)

وهنا نسب الخروج له، ولو وقف هنا لظُنّ أنّها غير راضية بالخروج، لكنّه أتى بفعلها المشارك له الذي يبيّن أنّها كانت طائعة مختارة، حيث كانت تسير من خلفه وتمسح أثره وأثرها بثيابها التي تجرها من خلفها؛ حتى لا يدركهم القافة الذين يتتبعون الأثر فيصلون إليهما، ثم يربط بينهما مشاركاً إياها الحدث بقوله (على أثرينا).

حتى مع الذّئب جعل الفعل مشتركاً، فنجده يقول:

وَوَادٍ كَجَوْفِ العيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَى: إنّ شَأْنَنَا قَلِيلُ الغِنَى أن كُنْتَ لَمَّا تَمَوَّلِ
كِلاَنَا إذا مَا نَالَ شَيْئاً أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يُهْزَلِ(٢)

ففي هذا تظهر روحه التي تميل إلى المشاركة في الفعل، فقد رأى في الذّئب صورة من حياة الخلعاء التي عاشها، فسحب عليه ما عاناه في تلك الحياة، وأثبت له صفة الحرث التي تفضي إلى الهزال، وشاركه فيها رابطاً ذلك بقوله:

كِلاَنَا إذا مَا نَالَ شَيْئاً أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يُهْزَلِ

وهذه المشاركة روح تنافي التفرد، والتطرف، وتعدّ من التّوسط في السّلوك.

الطريق الثّالث: ونعني به اختيار موقف وفاقيّ عند التّعرض لموقفين مختلفين، فمثلاً حينما اشتكت عشيقته من وجوده معها على بعيرها، وما يسببه من أذى لبعيرها، لم يختر امرؤ القيس النّزول خوفاً على البعير، وإن كان هذا هو الموقف الذي تريده محبوبته، ولم يختر الاستمرار على أية حال، وإن كان هذا هو

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع السّابق، ص٣٨.
(٢) المرجع سابق، ص٥١، ص٥٢، ص٥٣.

الموقف المطلوب لهواه، لكنّه لجأ إلى موقف وفاقيّ، يجنب ظهر البعير العقر، ويحقق له البقاء مع عشيقته، فقال:

فَقُلْتُ لَهَا سِيْرِيْ وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلا تُبْعِدِينِي مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ(١)

والصّورة التي تصل إلى المتلقي تبيّن أنّ الشّاعر تحرّك قليلاً من ظهر البعير إلى موضع آخر، بعد أن أرخت محبوبته الزّمام، وكان غير بعيد منها، وهو ما أراده في طلبه:

وَلا تُبْعِدِينِي مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ

وبهذا يكون قد حقق لها ما تريد، ونال منها ما يريد، وظهر وسطيَ التّفكير والاختيار.

ومثل هذا متوقّع من مغامر يسعى لتحقيق مكاسب كبيرة في أزمنة قصيرة، فهو تارة يدخل على المرأة وقد نضّت للنوم ثيابها، وأخرى يركب معها على بعيرها، وغير ذلك مما صوّره في شعره، وكلّها مواقف

– غالباً – لا تقبل الحسم، فاختيار موقف حاسم يأتي خصماً على آخر، فيسبب خسارة لا يرجوها المغامر، كعقر البعير واكتشاف أمره، أو مغادرتها وعدم تحقيق غرضه.

ومثل هذا يظهر مرة أخرى مع محبوبته، فحينما يرى أنّها تتدلّل عليه، ويوقن أنهّا عزمت على فراقه، لا يرفض ذلك مطلقاً، وكأنّه يرى أنّ في الرّفض قسوة على المحبوبة، ولكنّه لا يرضى الفراق مطلقاً، ففيه قسوة عليه، فيختار موقفاً وفاقيّاً وسطاً، أشار إليها به؛ حتى يحقق رغبتها المشبعة لتدللها، مع مراعاة مشاعره المتعلّقة بها، فنجده يقول:

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِيْ فَأَجْمِلِي(٢)

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع السّابق، ص١٠.

(٢) المرجع سابق، ص ٣٢.

الاتزان: ويقصد به تلك الحالة النّفسيّة التي " تتعادل فيها الميول فلا يغلب أحدها على الآخر ..."[١]، ومنها تأتي الصّورة غير الجانحة، القابعة في الوسط بلا إفراط أو تفريط.

وهي صورة تحتاج لمحدّد يضبطها حتى تخرج متزنة، مناسبة للمراد، وهذا ما نجده عند امرئ القيس في معلّقته حيث يقدّم وصفاً متزناً، فيحدّد الصّورة التي يريدها بدقة، ويحكم ضبطها، فحينما يصف محبوبته، يقول:

وجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفاحِشٍ إذا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ[٢]

فهذا الجيد ليس بفاحش أي غير متجاوز الحد، ورغم شبهه بجيد الظّباء، ليس خالياً من الحلي (ولا بمعطّل)، وفي هذا صورة وسطيّة محدودة المعالم، تنم عن مصوّر وسطي الخيال، فلو تخيل المتلقي جيداً شبيهاً بجيد الريم لكنّه طويل طولاً زائداً، أو قصيراً قصراً زائداً، فقد تخيّل جيداً مذموماً لم يقصده الشّاعر، ولو تخيله مثل جيد الرّيم ولا يشتكي قصراً ولا طولاً، ولكن بدون حلي، فقد تخيّل صورة لم يردها الشّاعر، فالشّاعر يريد جيداً شبيهاً بجيد الرّيم، مزيناً بالحلي.

إنّ المتأمل مثل هذه الصورة المحدّدة بدقة يعنّ لذاكرته موقف الشّاعر عند تلقيه نبأ موت أبيه، فيرى هذا التّحديد: " لا صحو اليوم، ولا شرب غداً "[٣]، فيدرك أنّ هذه المحدّدات الحاسمة التي تقود إلى موقف وسطي، أو صورة وسطيّة، عنصر ظاهر في طريقة تفكير الشّاعر، واختياراته التي هي جزء من تصوّره.

كذلك نجده يقول:

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَتْ لنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ[٤]

---

(١) أحمد مختار عبد الحميد وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٣، ط١، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م، ص ٤٣٢.

(٢) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع السّابق، ص١٢.

(٣) الميداني، مجمع الأمثال، ج٢،ص٢١٧.

(٤) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٣٧.

فلم يترك المتلقي يسرح بخياله ليتوهّم أنّها تخلّت عن ثيابها، وإنّما حدّه بأنّها ترتدي لبسة المتفضّل المستعد للنوم، وهو اختيار وسط بين كونها عارية، وكونها كانت كاسية تماماً، وهذه صورة محدّدة تقطع الطّريق أمام صورتين متوقعتين لم يقصدهما الشّاعر؛ إذ فيهما ما لم يُرد، وهما:

الأولى: كونها نضّت ثيابها كلّها فتهيأت للنوم، فهنا يبدو كونه أتى إليها متلصصاً، من غير موعد، أو موعوداً لا ترغب المحبوبة في الخروج معه.

الثّانية: كونها لم تنض ثيابها، فهنا تبدو مستعدّة للخروج، وهو ما لم يرده الشّاعر، فهو يريدها متمنعة، في الخروج معه، لكنّها غلبها حبه، ليصل إلى الصورة التي يقول فيها:

فقالتْ :يَمينَ الله ما لكَ حيلَةٌ وَما إنْ أرى عنكَ الغَوايةَ تَنْجلي(١)

وأمام هاتين الصورتين وضع الشّاعر صورته التي يريد، وحدد معالمها متوسطة بين الاثنتين.

وفي وصف فرسه، يصوّره طويل الذّيل، لكنّه ليس طولاً يلامس الأرض، بل هو فويقها، بدرجة من الارتفاع لا تجعله قصيراً، فيقول:

ضَليعٍ إذا استَدْبَرْتَهُ سَدّ فَرْجَهُ بضافٍ فُوَيق الأرضِ ليس بأعزَلِ (٢)

والمتلقي غير العارف بالخيول، لا يفهم ماذا يعني هذا الوصف في عالمها، ولكنّه يدرك أنّ هذه الصورة محمودة، لأنّها وضعت بعناية في سياق مدح لا سياق ذم، وهذا من ثمرات التّفكير الوسطيّ المتزن الذي يقود إلى ما يراد تذوقاً.

يتضح لنا من هذه الشّواهد أنّ امرأ القيس يميل إلى ضبط صوره بدقة، وهذا ممّا يمكن أن نعدّه مؤشراً إلى أصالة الفكرة الوسطيّة عنده.

---

(١) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق ، ص٣٨.

(٢) المرجع السّابق، ص٥٩.

خاتمة:

الباحث في الإرث الأدبي العربي – شعراً ونثراً – يجد جذوراً لموضوعات كثيرة شغلت الباحثين في العصور الحديثة؛ ولذلك فليس مستغرباً أن نجد لقضية الوسطيّة ملامح في هذا الإرث، لاسيما الشعر (ديوان العرب)، لكنّ هذا الأمر مما يحتاج لجهد في ربط النّصوص بمفهومات الظاهرة، مع صنع جسور اصطلاحيّة تيسر ذلك الربط؛ ولذا عمل الباحث في هذه العلاقات رابطاً بينها، مجتهداً في ذلك بخطى تسير نحو الهدف، وتنظر إلى المزالق؛ لتصل إلى تريد، وكان نتاج ذاك الآتي:

-الوسطيّة قضية إنسانيّة قديمة عرفتها البشرية منذ عهد (أرسطو)، وظهرت ملامحها فيما حمله الإرث العربي القديم، لا سيما الشعر.

-أثرّت البيئات المختلفة التي عاشها امرؤ القيس في طريقة تفكيره، فأوجدت ملامح للتفكير الوسطي.

-تجلّت الوسطيّة في شعر امرئ القيس من خلال شعره في عدة صور لخصها الباحث في الآتي: البينيّة، والثّنائيّة، والشِّرْكة، والطريق الثّالث، والاتزان.

-وجود هذه الملامح الوسطيّة يعني أنّ ما جاء به الإسلام، أقرّ ما كان موجوداً عند العرب قبله، وقد كانت دعوة الإسلام تثبيتاً لملمح من مكارم الفكر، وزيادة لها بما هو خير وأفضل.

إنّ من المهم أن يشكّل النّقد الأدبيّ العربيّ حضوراً يخرجه من المسارات النّقديّة العربيّة التّقليديّة، ومسارات تقليد النّقد الأجنبي التي اجتاحته بشدة في الآونة الأخيرة؛ ليحقق درجة من الاتزان المواكب، وهذا ما يحققه طرق مثل هذه الموضوعات؛ ولذلك يوصي الباحث بمزيد من الدّراسات التي تحمل هذا البعد، مثل دراسة التّطرف في معلقة عمرو بن كلثوم، أو غيرها ممّا يعالج ظاهرة التّطرف بوصفها المكملة لقضايا الوسطيّة ؛ ففي مثل هذه الدّراسات ما يجعل النّقد الأدبي أكثر حضوراً في قضايا المجتمع الحيّة، ويمكّن من توجيه الذّوق لما يناسب الإنسانيّة وحاجتها إلى السّلام، والاستقرار، والمحبّة.

فهرست المصادر والمراجع

أولاً: المصادر.

• القرآن الكريم.

١- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ط٢، دار المعرفة، بيروت،١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

ثانيا: المراجع.

١- ابن أبي الدنيا، المطر والرّعد والبرق، ط١، ت: طارق محمد سكلوع العمودي، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٢- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ج١، ط١، ت: عبد الحميد هنداويّ، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.

٣- ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، ج٣، ت: عبد السّلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٤- ابن قتيبة الدّينوري، الشّعر والشّعراء، ج١، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

٥- ابن قتيبة، المعاني الكبير في أبيات المعاني، ج١، ط١، ت: سالم الكرنوكي، وعبد الرّحمن بن يحي، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد الدّكن، ١٣٦٨هـ.

٦- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج١، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، (د.ت).

٧- أبوزيد بن الخطّاب القرشيّ، جمرة أشعار العرب، ت: علي محمّد البجادي، نهضة مصر للطباعة النّشر، (د.ت).

٨- أبو عمرو الشيباني، شرح المعلّقات التّسع، ط١، ت: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٩- أبو فراس الحمداني، ديوان أبي فراس، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدّة، ٢٠٢٠م.

١٠- أحمد مختار عبد الحميد وآخرون، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ط١، ج٣، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.
١١- الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللّغة وصحاح العربي، ج٣، ط٤، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت،١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.
١٢- الخطيب التّبريزي، شرح القصائد العشر، إدارة الطبّاعة المنيريّة، ١٣٥٢ه.
١٣- الخطيب التّبريزي، شرح ديون الحماسة، ج١، دار القلم، بيروت، (د. ت).
١٤- الرّازي، المحصول، ج١، ط٣، ت: طه جابر فيّاض العلواني، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.
١٥- الزَّوْزَني، شرح المعلّقات السّبع، ط١، دار احياء التّراث العربيّ،١٤٢٣هـ ،٢٠٠٢م.
١٦- السّيوطي، الدّر المنثور في التّفسير المأثور، ج٥، دار الفكر، بيروت.
١٧- الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ت: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)
١٨- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
١٩- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ط١، دار التراث الأول،١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
٢٠- ناصر العمر، الوسطيّة في ضوء القرآن الكريم، مدار الوطن، (د. ت).
٢١- محمّد حمد كنان ميغا، التّأصيل الشّرعي لمفهوم الوسطيّة في الإسلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ت).
٢٢- وليم دول، المنهج في عصر الحداثة، ترجمة خالد عبد الرحمن العوض، ط١. مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٩٩١
٢-	Abstract	١٩٩٢
٣-	مقدّمة:	١٩٩٣
٤-	التّمهيد: ملامح الوسطيّة في الشّعر العربيّ القديم.	١٩٩٦
٥-	تجلّيات الوسطيّة في معلقة امرئ القيس	٢٠٠٣
٦-	خاتمة:	٢٠١٢
٧-	فهرست المصادر والمراجع	٢٠١٣
٨-	فهرس الموضوعات	٢٠١٥